آيةُ الإكمالِ عندَ علماءِ الشيعةِ والجمهورِ
دراسةٌ في دلالةِ المفردات

الشيخ عيسى محسني
جامعة المعارف الاسلامية قم المقدسة

The Verse of Completion According to Shiite Scholars and the Public
A Study of the Meaning of the Terms

Sheikh Issa Mohseni
Islamic Knowledge University, Holy Qom

ملخص البحث

أخذت الولاية و الخلافة مكانة بالغة الأهمية في الإسلام حتى عدّت في رتبة الرسالة والنبوة ، وقد أشارت إلى ذلك آيات كثيرة، و من أكثرها صراحة فيما نحن فيه آية الإكمال ، فقد اتفق علماء الشيعة على نزولها في الإمام علي عليه السلام إلّا أنّ وضعها في الآية الثالثة من سورة المائدة ، واحتفافها بإمور غير مرتبطة بالولاية أثار بعض الشبهات والتشكيكات لدى بعض علماء الجمهور ، فأجاب علماؤنا عن تلك الشبهات والاعتراضات بأدلّة متقنة، وقد أشرنا في هذه المقالة إلى جملة منها ، وجعلنا هذا المقال في محورين ذكرنا في المحور الأول أقوال علمائنا في استقلالية آية الإكمال ، وفي المحور الثاني استعرضنا قول الجمهور في ذلك، وتفسيرهم لمفردات الآية الكريمة والجواب عن تلك التفاسير.

الكلمات المفتاحية : إكمال الدين، المائدة، الولاية، يأس الكفار، اليوم.

Abstract

caliphate occupies a very important place in Islam until it is counted in the ranks of the message and prophethood, and many verses have referred to that, and the most explicit of which is what we are in the verse of completion The Shiite scholars have agreed that it will be revealed in verse 3 of Surat Al-Ma'idah, and its celebration of matters not related to the state raised some suspicions and doubts among some scholars of the majority

Our scholars answered these suspicions and objections with elaborate evidence. In this article we have referred to a sentence of them, and we have made this article in two axes. The answer to those interpretations.

Key words: Completion of Religion, Table, Guardianship, Despair of infidels, Today.

المقدمة

لقد خلق الله الإنسان في هذه النشأة ، وكانت الغاية من وراء خلقه العبادة والتقّرب إليه سبحانه ﴿وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُون﴾ سورة الذاريات/ ٥٦، و أرسل رسلًا لتحقيق هذه الغاية، كان آخرهم النبي محمد بن عبدالله ﷺ، و قام النبي ﷺ بتبليغ الرسالة السماوية ، ودعوة الناس إلى الله تعالى بأفضل ما يمكن، وقد أجتهد ﷺ في ذلك حتى قال الله تعالى مخاطباً إيّاه ﴿ طه ۝١ ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى ﴾[1] ، وآخر ما دعي إليه كان في غديرخم ، فقد قام بين ذلك الجمع الغفير، وخطب الناس ودعاهم إلى بيعة الإمام علي عليه السلام على أن يكون إمامًا وخليفة من بعده ، فاستجاب له كل من حضر في ذلك الموقف، فبايعوا عليًّا على أن يكون إمامهم ، وخليفتهم بعد النبي ﷺ، و عندئذٍ أنزل الله تعالى ﴿ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِينا ﴾[2] ، إلاّ أنّ بعض علماء الجمهور رفضوا نزول هذه الآية في علي عليه السلام، و ذكروا لها تفاسير متعددة لا تكاد تنسجم مع معنى الآية ، فمنهم من ذهب إلى أنّ الآية نزلت لتصف بعض الأحكام التشريعية بإكمال الدين وإتمام النعمة، ومنهم من قال إنّ إكمال الدين إنّما حصل بنصرة الدين الإسلامي وغلبته على سائر الأديان، وغير ذلك من الأقوال التي تبعد عن مقصد الآية ، وقد قمنا في هذا البحث بالردّ على تلك الأقوال الواهية ، وأثبتنا عبر الآيات القرآنية والروايات الشريفة أنّ الآية نزلت في ولاية وخلافة علي عليه السلام بعد النبي ﷺ.

المحور الأول

أقوال علمائنا في إستقلالية آية الإكمال

قد أُسّس في القرن الرابع علم سمّي بعلم التناسب، و هو علم يبحث عن الارتباط بين الآيات القرآنية و سورها، فيكشف عن وجوه الإعجاز البياني الذي استعمل في هذا

(١) سورة طه ، الآيات : ١-٢.
(٢) سورة المائدة ، الآية : ٣.

الكتاب السماوي المقدّس، و قد أُلّفت كتب مستقلة في هذا الموضوع.

فساعد هذا العلم علماء التفسير على معرفة التناسب الموجود بين الآيات التي يبدو للوهلة الأولى لا تناسب بينها، و كشف لهم الارتباط و التنسيق الوثيق و الدقيق بين تلك الآيات.

و من الآيات المميّزة التي جذبت أنظار المفسرين، و جعلتهم يفكرون في حقيقة الترابط و التناسب الموجود في فقراتها، هي الآية الثالثة من سورة المائدة قال سبحانه ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَ الدَّمُ وَ لَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَ ما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَ الْمُنْخَنِقَةُ وَ الْمَوْقُوذَةُ وَ الْمُتَرَدِّيَةُ وَ النَّطِيحَةُ وَ ما أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ ما ذَكَّيْتُمْ وَ ما ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَ أَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلامِ ذلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَ اخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيم ﴾ إذ نجد الحديث في صدر الآية جاء في تحريم بعض اللحوم التي اعتاد العرب قبل الإسلام على أكلها، و الانتفاع بها، ثم انتقلت الآية إلى موضوع آخر يتحدث عن يوم يئس فيه الكفار، و أُكمل فيه الدين و تمّت فيه النعمة، ثم جاءت الآية لتُكمل حديثها الذي بدأت به، و تبيّن أنّ المضطر إذا لم يكن باغيًا أو عاديًا فلا ضير له أن يتناول شيئًا من تلك اللحوم المحرمة.

و لعلمائنا في بيان ذلك أقوال و إليك بيانها مفصلًا.

القول الأول: ذهب بعض مفسري الإمامية ومنهم الطبرسي ، و اللاهيجي وغيرهما إلى أنّ هذه الفقرة (آية الإكمال) جملة معترضة اقحمت في الآية الثالثة من سورة المائدة ؛ و ذلك لأظهار العناية بها لدى المتكلم، فجعلت بين الفقرات غير مرتبطة بها حتى تلفت أنظار القراء، و يزدادوا تأمّلًا فيها، فإنّ القارئ عند ما يقرأ الآية ، و يجد أنّها تختلف في معانيها و محتواها، فيتأمل فيها أكثر، و يبذل جهدًا مضاعفًا ليفهم حقيقة الارتباط القائم بين فقراتها، فكل مسلم يؤمن بهذا الكتاب السماوي، و يعتقد أنّه نزل من عند الله الحكيم، فلا يمكن أن يتصوّر أنّه جاء بهذا الشكل العشوائي ، فلا بد من وجود حكمة من وراء ذلك، و

بهذا يتحقق الهدف من وضع الآية في ذلك الموضع[١].

القول الثاني : ما ذكره العلّامة الطباطبائي من أنّ الآية معترضة ؛ لأنّ الترابط الوثيق بين صدر الآية وذيلها يجعلنا نقطع بأنّ هذه الفقرة لا صلة لها بما قبلها وما بعدها، فقد قام النبي ﷺ ، أو الصحابة الذين جمعوا القرآن بوضعها في هذا الموضع، قال الطباطبائي رحمه الله ما نصه:إنّ قوله: ﴿ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ (إلخ) كلام معترض، و موضوع في وسط هذه الآية، غير متوقف عليه لفظ الآية في دلالتها و بيانها، سواء قلنا: إن الآية نازلة في وسط الآية ، فتخللت بينها من أول ما نزلت، أو قلنا إن النبي ﷺ هو الذي أمر كتّاب الوحي بوضع الآية في هذا الموضع مع انفصال الآيتين و اختلافهما نزولا ، أو قلنا: إنّها موضوعة في موضعها الذي هي فيه عند التأليف من غير أن تصاحبها نزولا، فإنّ شيئا من هذه الاحتمالات لا يؤثر أثرًا فيما ذكرناه من كون هذا الكلام المتخلل معترضًا إذا قيس إلى صدر الآية و ذيلها انتهى[٢].

القول الثالث: ما ذهب إليه بعض المعاصرين من أنّ آية الإكمال آية منفصلة عن ما قبلها و ما بعدها، فإنّها نزلت في غدير خم بعد نزول آية التبليغ ﴿ يا أَيُّها الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ وَ اللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِين ﴾[٣] ، فحينما أدّى النبي صلى الله عليه و آله مراسم تنصيب و تعيين عليّاً خليفة للمسلمين، نزلت هذه الآية ، و كان من المتوقع أن تُدوّن الآية بعد آية التبليغ ، الّا إنّ المعاندين و الغاصبين للخلافة غيّروا مسار الآية، فجعلوها في ضمن آية غيرمرتبطة بها؛ ليشغلوا الناس باحكام بعض اللحوم، و ينسيهم امامة علي عليه السلام[٤] .

القول الرابع: ما ذهب اليه صاحب الفرقان فهو يرى أنّ الآية تنسجم مع ما جاء في صدرها و ذيلها، بل تتفق مع الآيات السابقة و اللاحقة لها، فقد بدأ الله سبحانه في هذه

(١) تفسير مجمع البيان ، ٣ / ٢٦٤ ؛ تفسير اللاهيجي ، ١ / ٦٠٩.
(٢) الميزان ، ٥ / ١٦٨.
(٣) سورة المائدة ، الآية : ٦٨.
(٤) تفسير أطيب البيان ، ٤ / ٢٩٥.

السورة ببيان العقود اللازمة التي يجب أن تلاحظ ، فذكر منها العقود الشرعية و العقود الاجتماعية ، ثم انتقل إلى عقد آخر يرتبط بواحدة من أهم المسائل الإسلامية ، و هي إمامة و قيادة الأمة الأسلامية، فالدين يُعدّ بناءً واحدًا يتكوّن من عدة أركان و عقود منها الشرعيات، و منها الإيمانيات و ...و من أهمها عقد الإمامة و الولاية، و قد جاء هذا العقد بعد عقود الواجبات و الحلال و الحرام، فلا يرد أيّ اعتراض على الآية و إنّما قوله: ﴿ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَ اخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً ﴾ جاء في سياق صدر الآية و ذيلها، و هي تهدف إلى شيء واحدٍ ، و هو الالتزام بالعقود الإلهية [1] .

القول الخامس: ما جاء في تفسير الأمثل من أنّ الآية نزلت في غدير خم بعد نزول آية التبليغ ، و هناك احتمال بأن يكون سبب إقحام موضوع واقعة "غدير خم" في آية تشمل على موضوع لا صلة لها به مطلقا، مثل موضوع أحكام الحلال و الحرام من اللحوم، إنما هو لصيانة الموضوع الأوّل من أن تصل إليه يد التحريف أو الحذف أو التغيير [2].

فيذهب صاحب هذا الرأي إلى أنّ الجملة معترضة، و قد وضعت في هذا الموضع حتى لا تصل إليها أيدي التحريف و التزوير و التغيير.

لذا هذه الأقوال الخمسة تتفق على أنّ هذه الآية نزلت في ولاية ، وخلافة علي عليه السلام إلّا أنّها اختلفت في بيان حكمة وضعها ضمن الآية الثالثة من سورة المائدة.

المحور الثاني

دلالة مفردات آية الإكمال عند الجمهور

بعد أن اتضح في المحور الأول أقوال علماء الشيعة في معنى الآية أقول: إنّ الجمهور بناءً على ما ذهبوا إليه من أنّ يأسَ الكفار و إكمال الدين تحقّق بتشريع هذه الأحكام ، فلا يرون وجود أيّ تفاوت بين فقرات هذه الآية، بل يعتقدون أنّ قوله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ

(١) تفسير الفرقان ، ٨ / ٧٢

(٢) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ، ٣ / ٥٩٦

كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَ اخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِينا ﴾ يتفق و ينسجم تمامًا مع ما جاء قبل و بعد هذه الآية ، و يمكن لنا بيان دلالة مفردات الآية على النحو الآتي :

الأولى: اليوم

اختلفت كلمة علماء الجمهور في المقصود من كلمة "اليوم" في الآية الكريمة على أقوال:

القول الأول: إنّ المقصود به يوم البعثة[١]؛ لأنّ الله سبحانه أظهر دين الإسلام ببعثة النبي صلى الله عليه و آله و دعوته.

القول الثانى:ذاك هو يوم فتح مكة[٢]؛ إذ أبطل الله فيه كيد المشركين، و كسر أصنامهم، و أعزّ المسلمين، و أذلّ الكافرين.

القول الثالث: المراد به هو يوم نزول سورة البراءة إذ انتشر فيه الإسلام في جزيرة العرب، و ذهبت آثار الشرك، و سنن الجاهلية، و تطهرت مناسك الحج عن وجود المشركين فيها[٣].

القول الرابع: لا يريد به يومًا بعينه، بل معناه أنّ الكافرين من الآن فصاعدًا قد يئسوا من دينكم، و هذا كقول القائل اليوم كبرت أو قد بان الشيب على وجهي ، فهو لا يقصد به يومًا محددًا ، وعلى هذا الأساس فإنّ الآية لا تشير إلى حادثة مميزة قد وقعت في زمن معين [٤] .

القول الخامس: إنّه يوم عرفة في حجة الوداع في السنة العاشرة للهجرة ، لّما كان النبي صلى الله عليه و آله واقفًا بعرفات على ناقته العضباء فحينها نزلت الآية [٥] .

هذه هي الأقوال التى جاءت في كتب العامة في تفسير كلمة اليوم المذكورة في الآية الكريمة، و سيتبين للقارئ الكريم عدم تمامية واحد منها.

(١) حقائق التفسير ، ١ / ٢٨
(٢) الجامع لأحكام القرآن ، ٦ / ٦٠
(٣) جامع البيان في تفسير القرآن ، ٦ / ٥٣ ، الدر المنثور ، ٢ / ٢٥٨
(٤) مفاتيح الغيب ، ١١ / ٢٨٧ ، روح المعاني ، ٣ / ٢٣٣
(٥) مفاتيح الغيب ، ١١ / ٢٨٦

مناقشة القول الأول:

أمّا أن يكون المقصود من ذلك اليوم يوم البعثة، فهذا لا يمكن قبوله؛ و ذلك لوجوه ثلاث

الأول: إنّ ظاهر الآية يدل على أنّ المسلمين كانوا آنذاك يدينون بدين، و كان الكفار يطمعون في دينهم، و يسعون لإبطاله، أو تغييره، و من جهة أُخرى كان المسلمون يخشون على تغيير دينهم، أو القضاء عليه ، فأيأس الله الكافرين فيما طمعوا فيه.

الثاني : إنّ ذلك الدين لم يكمل بعد، بل كان ناقصًا، فأكمله الله سبحانه في ذلك اليوم، و أتمّ النعمة عليهم.

و من الواضح أنّ الإسلام بدأ ببعثة النبي ﷺ، و لم يكن قبل ذلك للمسلمين دين فيطمع فيه الكفار، أو يتمّ إكماله من قبل الله تعالى، بل أساسًا لم يكن هنالك مسلم حتى يصحّ أن يخاطبه الله تعالى بقوله ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً ﴾ إنّ ضمير "كم"، لايصدق إلّا إذا إفترضنا وجود مسلمين قبل البعثة النبوية، و هو باطل.

الثالث: لو كان المقصود من ذلك اليوم يوم البعثة؛ لكان الأنسب أن يتقدم قوله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً... ﴾ على قوله: ﴿ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ ... ﴾ لأنّه من المعلوم أنّ يأس الكفار ناتج من إكمال الدين، في حين أنّنا نرى أنّ الجملة الأولى تأخرت عن الثانية [1] .

مناقشة القول الثاني:

أمّا قول بعضهم[2] إنّ الآية نزلت في فتح مكة فذلك ما لا يمكن قبوله أيضًا و ذلك لأمور:

الأول: دلّت الآية على أنّ الدين بمفهومه العام والشامل للفرائض والعقيدة،

(١) الميزان ، ٥ / ١٦٩

(٢) الجامع لأحكام القرآن ، ٦ / ٦٠

والأخلاق قد كمل في ذلك اليوم، فما من شيء إلّا و قد بيّنه النبي الأكرم ﷺ حتى ذلك الحين، و هذا لا ينسجم مع نزولها في فتح مكة الذي كان في السنة الثامنة ، فقد نزلت أحكام كثيرة بعد الفتح لم تكن سابقًا [١] .

الثاني : إنّ الآية أخبرت عن يأس الكفار و المشركين جميعًا، و لم تستثنِ أحدًا منهم، فلم يبقى للكفار في ذلك اليوم أيّ بصمة بين الناس، و الحال أنّ المشركين بعد فتح مكة لم ييئسوا من دين المسلمين تمامًا، بل ظلّوا يعارضونه بكل ما يمكنهم، و قد نقل الطبري في تأريخه عدة حوادث قام بها المشركون بعد فتح مكة، منها: إرسال االنبي ﷺ عليًّا عليه السلام لقراءة آيات من سورة البراءة على المشركين، و قد شرط عليهم أن لايقربن المسجد الحرام بعد عامه هذا، و لا يطوفنّ بالبيت عرايان ، و من كان بينه و بين رسول الله صلى الله عليه و آله عهد فله عهده إلى مدّته. فقالوا له: نحن نبرأ من عهدك وعهد ابن عمك [٢]، و غيرها من الحوادث التى تدل على أنّ الكفار و المشركين كانوا لا يزالون يشعرون بالقوة و القدرة أمام المسلمين.

الثالث: إنّ هذا القول يعارض الروايات المتواترة التى وردت في سبب نزول هذه الآية، سواء قلنا إنّها نزلت في غديرخم، أو عرفة، أو غيرهما[٣]

مناقشة القول الثالث:

و ممّا ذكر في مناقشة القول الأول و الثاني يتبيّن أيضًا فساد هذا القول، و أن يكون ذلك اليوم هو يوم نزول آيات من سورة البراءة؛ لأنّ الدين لم يكمل في حين نزول تلك الآيات، فقد نزلت بعد ذلك أحكام و فرائض كثيرة، و منها ما في هذه السورة (المائدة)، فقد اتفقوا على نزولها آخر عهد النبي صلى الله عليه و آله، و فيها شيء كثير من أحكام الحلال و الحرام، والحدود و القصاص [٤] .

(١) صحيح البخاري ، ٢ / ٩٦٦ ، ح١٣٢٩
(٢) تاريخ الطبري ، ٢ / ١٧٦
(٣) الدر المنثور، ٢ / ٢٥٨
(٤) الميزان ، ٥ / ١٦٩

كما أنّه يعارض أخبار سبب نزول الآية -كما سنشير إليها- التى تؤكّد على أنّ ذلك اليوم كان في حجة الوداع في السنة العاشرة.

مناقشة القول الرابع:

إنّ ما يدعيه أصحاب هذا القول كالفخرالرازي ، والآلوسى من أنّ المراد من اليوم في الآية ليس يوم بعينه [١]، فهو ليس إلاّ مجرد ادّعاء و احتمال؛ إذ المعنى الحقيقى لكلمة اليوم هو المدّة الزمنية التي تبدأ من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ، أي ما يرادف النهار، و يشهد لذلك قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ كانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَر ﴾ [٢]، أو ما يستغرق الليل و النهار الذي يساوي ٢٤ ساعة، فهذان هما المعنيان الحقيقيان لهذه الكلمة، و الأصل في الاستعمال أن تستعمل الكلمة في معناها الحقيقي ، و أمّا استعمالها في المعنى المجازي، فلا بد له من قرينة، و لم يذكر أصحاب هذا الرأي أيّ قرينة على دعواهم [٣] .

كما لا يوجد أىّ شاهد قرآني ، أو روائي على صحة هذا القول، بل الروايات الكثيرة و المعتبرة تعارضه حيث حدّدت اليوم في هذه الآية بيوم الثامن عشر من ذي الحجة كما يقول الإمامية ، أو اليوم العاشر أي يوم عرفة كما يذهب إليه السنة – و سيتبيّن أنّ ما تذهب إليه السنة غير تمام و ترد عليه عدة إشكالات، و من تلك الأخبار ما روي عن أبي هريرة أنّه قال: لما كان يوم غدير خم و هو يوم ثماني عشر من ذي الحجة قال النبي صلى الله عليه و سلم : من كنت مولاه فعليّ مولاه فأنزل الله الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُم ، وما ورد عن أبي سعيد الخدري قال: لما نصّب رسول الله ﷺ عليّاً يوم غدير خم فنادى له بالولاية هبط جبريل عليه بهذه الآية الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُم [٤] .

مناقشة القول الخامس:

يعتقد جمهور أهل السنة إنّ الآية نزلت في يوم عرفة في حجة الوداع؛ و ذلك استنادًا

(١) مفاتيح الغيب ، ١١ / ٢٨٧ ، روح المعاني ، ٣ / ٢٣٣
(٢) سورة البقرة ، الآية : ١٨٤
(٣) التحقيق في كلمات القرآن ، ١٤ / ٢٨٠
(٤) الدر المنثور ، ٢ / ٢٥٩

ألى عدد من الروايات التي رويت عن عمر بن الخطاب ، فقد جاء في رواية أنّ اليهود قالت لعمر أنّكم تقرأون آية في كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيدا ، قال: و أيّ آية، قالت اليهود (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي) قال: عمر و الله إني لأعلم اليوم الذي نزلت على رسول الله ﷺ فيه ، والساعة التي نزلت فيها نزلت على رسول الله ﷺ عشية عرفة في يوم جمعة[١].

و يلاحظ على هذه الرواية أولًا : أنّه قد ورد في بعض الأحاديث أنّ النبى ﷺ لم يُصلِّ في ذلك اليوم صلاة الجمعة ، و إنّما صلى الظهر و العصر[٢] ، وهذا يجعلنا نشكّك في صحة رواية عمر؛ إذ كيف يعقل أن يكون ذلك اليوم، يوم جمعة والنبي يترك صلاة الجمعة وهي تعد فريضة من الفرائض في عصره ﷺ .

أمّا ما جاء في الرواية الثانية المروية عن أبي العالية حيث قال: كانوا عند عمر فذكروا هذه الآية فقال: رجل من أهل الكتاب لو علمنا أيّ يوم نزلت هذه الآية لاتخذناه عيدا، فقال عمر: الحمد لله الذي جعله لنا عيدا، و اليوم الثاني نزلت يوم عرفة و اليوم الثاني يوم النحر فأكمل لنا الأمر فعلمنا أنّ الأمر بعد ذلك في انتقاص[٣] ، فهي تعارض ظاهر الآية التي وصفت ذلك اليوم بالكامل ، و أنّه تمت فيه النعمة ، و لم يطرء عليه بعد ذلك أي نقص، كما أنّها تعارض الحديث المروي عن ابن عباس قال: أخبر الله نبيه صلى الله عليه و آله و المؤمنين إنّه قد أكمل لهم الإيمان، فلا تحتاجون إلى زيادة أبدا، و قد أتمه فلا ينقص أبدا، و قد رضيه فلا يسخطه أبدا[٤] .

فضلًا عن ذلك أنّ هذه الروايات تخالف الروايات المتواترة المذكورة عن طريق الخاصة، والعامة من أنّ ذلك اليوم هو اليوم الذى نصّب رسول الله صلى الله عليه و آله عليّاً عليه السلام يوم غديرخم، و هذه الروايات و إن حاول بعض علماء العامة تضعيفها إلّا أنّ

(١) جامع البيان في تفسير القرآن ، ٦ / ٥٣
(٢) خصائص أمير المؤمنين عليه السلام ، ١ / ٢٩
(٣) الدر المنثور ، ٢ / ٢٥٨
(٤) المصدر نفسه ، ٢ / ٢٥٨

علماءنا أثبتوا صحّتها، فمن أراد فليراجع كتاب الغدير للعلّامة الأميني [1] .

ثانيًا : إنّ تقديم الظرف "اليوم" على متعلقه أعنى يئس في هذه الآية يدلّ على عظمت ذلك اليوم الذي كمل فيه الدين و تمّت فيه النعمة، فلا بدّ أن يكون الحدث الواقع فيه يناسب تلك الأوصاف العظيمة التى ذكرت له ، أمّا عرفة فلم يحدث فيها شيء خاص حتى يئس فيه الكفار، و يكمل فيه الدين، و تتمّ فيه النعمة، بل هو يوم من أيام الحج و يؤتى فيه لبعض مناسكه [2] ، وإن زعم القائل أنّ إكمال الدين حصل بممارسة تلك المناسك ؛ لأنها كانت بحضور النبي ﷺ و تعليمه المباشر .

فنقول: إنّ مجرد تعليمه ﷺ الناس مناسك حجهم لا يصحّ أنّ يسمى إكمالًا للدين ، كيف و قد علّمهم قبل ذلك ما هو أهم من الحج ، كالصلاة و الصيام ، و الجهاد ، و غيرها، و لا يصحّ أن يسمّى تعليم شيء من واجبات الدين إكمالًا لجميع الواجبات فضلًا عن أن يسمّى إكمالًا للدين.

فضلًا عن ذلك أنّ هذا الاحتمال يوجب انقطاع الصلة بين الفقرة الأُولى من الآية أعني قوله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ ﴾ من الفقرة الثانية أي ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً... ﴾ إذ لا توجد أي علاقة بين يئس الكفار عن الدين ، وبين تعليم رسول الله صلى الله عليه و آله حج التمتع للناس.

ثالثًا : قد وردت آيات كثيرة تذكر نزول أحكام و فرائض بعد يوم عرفة منها آية الكلالة قال تعالى: ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَ لَهُ أُخْتٌ فَلَها نِصْفُ ما تَرَكَ وَ هُوَ يَرِثُها إِنْ لَمْ يَكُنْ لَها وَلَدٌ فَإِنْ كانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثانِ مِمَّا تَرَكَ وَ إِنْ كانُوا إِخْوَةً رِجالاً وَ نِساءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم ﴾ [3]

و منها آية الربا قال سبحانه: ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ ذَرُوا ما بَقِيَ مِنَ الرِّبا إِنْ

(١) الغدير ، ١ / ٤٥٠
(٢) الميزان ، ٥ / ١٧١
(٣) سورة النساء ، الآية : ١٧٦

كُنْتُمْ مُؤْمِنِين ﴾[1] ، ويؤيد ذلك ما جاء في صحيح البخاري عن ابن عباس أنّه قال: آخر آية نزلت على النبي صلى الله عليه و آله آية الربا.

و بعد جميع هذه الملاحظات كيف يمكن أن يقال إنّ المقصود من اليوم في الآية هو يوم عرفة؟!

بعد أن اتضح لنا أنّ أيًّا من الأقوال الخمسة المذكورة لا تتلائم مع معنى الآية ، يبقى لدينا احتمال أخير ذهب إليه جميع مفسري الشيعة.

القول السادس:

يعتقد الشيعة أنّ المقصود من اليوم المذكور في الآية هو يوم غدير خم أي اليوم الثامن عشر من حجة الوداع السنة العاشرة الذي نصّب به النبي صلى الله عليه وآله عليًّا عليه السلام قائدًا و زعيمًا ، وخليفة للأُمة من بعده ، فهو اليوم الذي يئس فيه الكفّار، و أكمل الله تعالى فيه دينه، و أتمّ فيه النعمة، و رضي بأن يكون الإسلام ديناً للمسلمين[2]، و إستندوا لذلك ببعض الأدلة و القرائن، نشير إلى بعضها.

الأول: إنّ الأهمية العظيمة لذلك اليوم، التي تمثّلت بالأحداث الأربعة (يئس الكفار، إكمال الدين، إتمام النعمة و رضي الله أن يكون ذلك الدين دينًا خاتمًا إلى يوم القيامة) ، تمنع من أن يكون ذلك اليوم هو يوم أُنزل فيه حكم حرمة اللحوم، أو أن يكون ذلك اليوم هو يوم عرفة ، أو غيرها ؛ إذ أي اهمية لهذه الأُمور حتى تؤدي بيأس الكفار، أو إكمال الدين، و إتمام النعمة و...

على أنّ الآية أشارت إلى إنّ الكفار يئسوا من دين المسلمين، و أنّ الله أكمل دينهم، و من الواضح أنّ أحكام الحلال و الحرام هي جزء من الدين لا الدين بكامله، فإنّ الدين يشمل العقائد و الأخلاق و الأحكام.[3]

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢٧٨
(٢) أصول الكافي ، ١ / ٤٨٩ ، أمالي الصدوق، ٢ ، نور الثقلين ، ١ / ٥٨٨.
(٣) الميزان ، ٥ / ١٨١

إذن ، المقصود من الدين الذى يئس منه الكفار، هو الدعوة الإسلامية الحقّة بجميع ما لها من أُسس، و أركان، و مبادئ ، فإنّ الكفار كانوا يرجون زوال الدين الإسلامي بموت النبي صلى الله عليه و آله، و زعموا أنّه إذا مات النبي ستذهب و تندفن معه جميع السنن و القوانين التي جاء بها ولكن لمّا أمر الله نبيّه صلى الله عليه وآله بتنصيب من يقوم مقامه في حفظ الدين، و تدبير أمره، و إرشاد الأُمة ؛ فعندئذٍ يئس الكفار ممّا كانوا يطمعون فيه أي دين المسلمين و بذلك كمل الدينّ و تمت النعمة.

الثاني : الروايات الكثيرة التي نقلتها مصادر الفريقين من أنّ هذه الآية نزلت في غديرخم ، و من تلك الروايات ما نقله إبن جرير الطبري في كتاب الولاية بإسناده عن زيد بن أرقم أنّه قال : بنزول الآية الكريمة يوم غديرخُمّ في أمير المؤمنين عليه السلام [1] .

و منها ما رواه الحافظ أبو نعيم عن أبي سعيد الخدري أنّه قال: لمّا نصّب رسول الله صلى الله عليه و سلم عليّاً يوم غدير خم فنادى له بالولاية هبط جبريل عليه بهذه الآية " الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينكُم " [2] .

و منها ما روى عن أبي هريرة قال: لما كان يوم غديرخم و هو يوم ثماني عشر من ذي الحجة قال النبي صلى الله عليه و سلم "من كنت مولاه فعلى مولاه" فأنزل الله " الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينكُم " [3] .

هذا كله عن طريق العامة ، و أمّا ما جاء في مصادر الشيعة فهو أكثر من أن يذكر في هذا المقال ولكن نكتفي بذكر بعض ما روي.

١ – عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عن أبيه عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله : يوم غديرخم أفضل أعياد أمتي و هو اليوم الذي أمرنى الله تعالى فيه بتنصيب أخي على بن أبي طالب عليه السلام علمًا لأُمتى يهتدون به من بعدي، و هو اليوم الذي أكمل الله فيه الدين و أتم

(١) شواهد التنزيل ، ٢ / ١٩١
(٢) الدر المنثور ، ٢ / ٢٥٩
(٣) شواهد التنزيل ، ١ / ٣٠٢ ، تاريخ بغداد ، ٨ / ٢٩٠

على أمتي فيه النعمة، و رضي لهم الإسلام دينا [١] .

٢- عن أبي هريرة قال: من صام يوم ثمانية عشر من ذي الحجة كتب الله له صيام ستّين شهرا، و هو يوم غدير خمّ لما أخذ النبي ﷺ بيد عليّ فقال: ألست وليّ المؤمنين؟ قالوا: بلى يا رسول الله ، فقال: من كنت مولاه فعلي مولاه ، فقال عمر بن الخطاب: بخ بخ لك يا ابن ابى طالب أصبحت مولاي و مولى كل مؤمن! و أنزل الله: (اليوم أكملت لكم دينكم)[٢]

٣- عن أبي عبد الله عليه السلام قال إنّما أنزلت هذه الآية " الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُم"بعد نصب النبي عليا بغدير خم بعد منصرفه من حجة الوداع و هي آخر فريضة أنزلها الله تعالى[٣]

الثالث: لقد ذكر بعض مفسري العامة كالرازي، و الآلوسي، و رشيد رضا أنّ النبي ﷺ لم يعش بعد هذه الآية إلّا واحدًا و ثمانين يومًا و لّما نرى أنّ وفاته صلى الله عليه و آله (حسب ما يرويه اهل السنة و بعض روايات الشيعة) كان في اليوم الثاني عشر من ربيع الأول، نستنتج أنّ نزول الآية لابد من أن يكون في يوم الثامن عشر من حجة الوداع و هو يوم غديرخم [٤] .

الثاني : يأس الكفار

يرى أهل السنة أنّ يأس الكفار كان بسبب خيبتهم من إرتداد المسلمين و تراجعهم عن الدين الإسلامي ، فقد كان الكفار يطمحون في إرتداد المسلمين عن عقيدتهم، و يأملون أن يلحقوا بهم، و لكن بعد أن شاهدوا أنّ الله تعالى نصر الدين الاسلامي، و أظهره على الدين كله، يأسوا من ما كانوا يأملونه [٥] ، يقول الرازي : يئسوا من أن يغلبوكم على دينكم ؛ وذلك لأنّه تعالى كان قد وعد بإعلاء هذا الدين على كل الأديان، و هو قوله تعالى:

(١) نور الثقلين ، ١ / ٥٨٩
(٢) إثبات الهداة ، ٣ / ٥٢
(٣) مجمع البيان ، ٣ / ٢٤٦
(٤) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ، ٣ / ٥٩١
(٥) روح المعاني ، ٣ / ٢٣٢ ، تاريخ الطبري ، ٦ / ٥١

﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ فحقق تلك النصرة و أزال الخوف بالكلية ، و جعل الكفار مغلوبين بعد أن كانوا غالبين، و مقهورين بعد أن كانوا قاهرين [1] .

و قال بعضهم: إنّما يأس الكفار كان من أجل تحليل هذه الخبائث بعد أن كانت محرّمة على المسلمين، ولكن يلاحظ عليه أولًا : أنّه قد شُرّعت أحكامًا تحريميّة كثيرة قبل نزول هذه الآية منها آية ١١٥ من سورة النمل ، قال تعالى: ﴿ إِنَّما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَ الدَّمَ وَ لَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَ ما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَ لا عادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيم ﴾ ، ومنها آية ١٤٥ من سورة الأنعام قال سبحانه: ﴿ قُلْ لا أَجِدُ في ما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلى طاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَ لا عادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيم ﴾ ، فلو كان سبب يأس الكفار نزول بعض الأحكام التحريمية ، فكان الأولى أن ييأسوا بعد نزول هذه الآيات التى سبقت آية الإكمال ، ولماذا أصبح يأسهم بالتحريم النازل في هذه الآية و لم ييأسوا بالتحريمات النازلة قبل ذلك؟! .

ثانيًا : نحن نسأل هؤلاء، ما العلاقة و الصلة بين تحريم هذه اللحوم و بين يأس الكفار؟، وهل كانت تلك اللحوم ذات تأثير بالغ حتى يسبب تحريمها يأس الكفار ؟ هذا، و قد ثبت انّ تحريم تلك اللحوم لم يكن في ذلك اليوم بل كانت محرّمة قبل ذلك، فقد صرّحت آية ١٧٣ من سورة البقرة بتحريم بعضها قال تعالى: ﴿ إِنَّما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَ الدَّمَ وَ لَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَ ما أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَ لا عادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

ثالثاً: تقدّم أنّ آية الإكمال ﴿ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَ اخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً ﴾ ، جملة معترضة فهى من حيث المعنى و السياق غير مرتبطة بما قبلها وما بعدها وعلى ذلك فلا يصح أن يكون تحريم تلك اللحوم سببًا ليأس الكفار، أو سببًا لإكمال دين المسلمين .

(١) مفاتيح الغيب ، ١١ / ٢٨٧

و أمّا قول بعضهم إنّ يأس الكفار كان لأجل خيبتهم من ارتداد المسلمين، و إلتحاقهم بهم، فهو مخالف للآية ، فقد صرّحت الآية أنّ يأس الكفار كان من دين المسلمين لا منهم ﴿ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ ﴾ ، فقد كان الكفار يطمعون في دين الاسلام، و يرجون زواله، و يؤيد ما قلناه قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يطْفِئوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ، وَ يَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَ لَوْ كَرِهَ الْكافِرُون ﴾[1] ، فبُغض الكفار و عداوتهم كانت مع دين المسلمين، و لمّا قويت شوكة الإسلام، و إمتدّ ضياؤه الى مختلف المناطق ، وآمنت به قبائل متعددة فعندئذٍ ضعف رجواهم ولكن لم ينقطع ، فقد كانوا يرجون زوال الإسلام بموت النبى ﷺ؛ إذ يرون أنّه لا عقب له حتى يقوم مقامه، و يزعمون أنّه إذا مات أو قتل سينقطع أثره، و يموت ذكره، و ينتهي دينه كما هو حال السلاطين و الجبابرة فإنّ ذكرهم و قوانينهم الحاكمة تموت بموتهم، و لكن حينما رأوا أنّ النبي صلى الله عليه و آله قام في ذلك اليوم بتعيين عليًّا و جعله إمامًا و خليفة له في حفظ الدين، و تدبير أمره، فوجؤوا بذلك ، فانقطع أملهم و أصابهم اليأس من دين المسلمين .

الثالث: كمال الدين

ذكروا في معنى هذه الكلمة عدّة احتمالات فبعضهم قال: أنّ المقصود بها نزول جميع الفرائض ، ولم ينزل بعد هذه الآية شيء من الفرائض و الأحكام[2] ، وقد إستند أصحاب هذا الإحتمال إلى رواية السدي في تفسير هذه الآية قال: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُم هذا نزل يوم عرفة فلم ينزل بعدها حرام و لا حلال، ورجع رسول الله صلى الله عليه و سلم فمات[3].

و قيل: إنّ إكمال الدين حصل ببيان أغلب الفرائض والإحكام لاجميعها ؛ لأنّه قد ثبت أنّ بعض الآيات نزلت بعد هذه الآية، مثل آية الربا ، و آية الكلالة، و غيرهما.[4]

(١) سورة التوبة ، الآية : ٣٢
(٢) تفسير البغوي ، ٢ / ١
(٣) تفسير القرآن العظيم ، ٣ / ٢٣
(٤) صحيح البخارى ، ٨ / ٢٠٥

و قد حاول بعض مفسريهم أن يجمع بين القولين بأن يجعل تمام الإكمال في العقائد، و أُصول الشرائع ، و حمل بيان الأغلب على أحكام الحلال و الحرام [١] .

و قيل: أنّ المراد من إكمال الدين هو خلوّ بيت الله الحرام من المشركين، حتى إستطاع المسلمين أن يحجّوا البيت من دون أن يخالطهم أحد من المشركين، و يمارسوا طقوسهم من غير مانع ، و قد استندوا في ذلك إلى رواية سعيد بن جبير فقد روى عنه أنّه قال : اليوم أكملت لكم دينكم؛ يعنى تمام الحج و نفي المشركين عن البيت [٢] .

هذا بعض ما قالوا في معنى إكمال الدين ولكن واحد من هذه الأقوال لا يبدو صحيحًا؛ و ذلك لما تقدّم من أنّه لا يصح أن يسمّى تشريع الأحكام دينًا ، و بيان تلك الأحكام إكمالًا للدين، وإن قبلنا ذلك مسامحة فهو بيان و إكمال لجزء من أجزاء الدين لا جميعه؛ لما قلنا من أنّ الدين مجموعة شاملة للعقائد، و الأخلاق، و المعارف، و الأحكام.

ثانيًا : فضلًا عن ذلك ، أنّ الكثير من أحكام هذه الآية قد شُرّعت قبل نزولها.

ثالثًا : كيف يفسر إكمال الدين ببيان هذه الأحكام و الفرائض و سدّ باب التشريع، و قد صرّح غير واحدٍ منهم بتشريع أحكام كثيرة بعد نزول هذه الآية، فما شأن الأحكام النازلة ما بين نزول هذه الآية ورحيل النبي صلى الله عليه و آله.

أمّا قول بعضهم إنّ المراد من إكمال الدين خلوّ بيت الله الحرام من المشركين.

فيُردّ عليه: أنّ الآية تتحدث عن إكمال الدين، و يتحقق ذلك بإلحاق أحكام و قوانين جديدة إلى المنظومة الدينية التي تحتوي العقائد و الأخلاق و التشريع ، أمّا خلوّ بيت الله الحرام من دنس المشركين ، وإبعادهم عن البقعة الطاهرة، فهو لا يعدّ دينًا حتى يكتمل به .

فضلًا عن ذلك أن تطهير الكعبة و البيت الحرام من دنس المشركين، و أصنامهم ، وإبعادهم من ذلك المكان الطاهر قد تمّ في فتح مكة أي قبل ذلك اليوم بسنة أو سنتين والآية تتحدث عن إكمال الدين في ذلك اليوم.

(١) تفسير البيضاوى ، ٢ / ١١٥
(٢) تاريخ الطبرى ، ٦ / ٥٢

و كيف يعدّ الله سبحانه خلوّ البيت الحرام من الكفار والمشركين إكمالًا للدين و إتمامًا للنعمة ، وكان فيها من هو أشدّ من الكفار و المشركين خطرًا ، وأكثرهم فسادًا وهم المنافقون، وقد حذّر الله تعالى نبيّه منهم فقال ﴿ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُون ﴾[1] بل أنزل فيهم سورة كاملة؟![2]

لذا فلا يبقى إلّا أن يكون المقصود من إكمال الدين هو ما قام به النبي صلى الله عليه و آله في غديرخم من تنصيب عليًّا إمامًا و خليفة من بعده ، فقد كانت قضية الولاية من القضايا المهمّة و المصيرية في مستقبل الإسلام و قوته ، و امتدادًا لخط الرسالة و النبوة، فالدين الذي كان قد تعرّض لكل شيء و في أدقّ تفاصيله، لايتصور أن يتركه النبي صلى الله عليه و آله سدً ى من دون راعٍ يرعاه ، بل كان يتحتّم عليه أن يجعل له من يقوده، و يكمل مسيرته بأحسن ما يُتصور ، و بذلك سيتحقق إكمال الدين و إتمام النعمة ، و قد وردت روايات متواترة عن طريق الخاصة والعامة تؤيد هذا الاحتمال ، وقد ذكرنا سابقًا جملة من تلك الروايات و هنا نشير إلى قسم آخر منها.

رُوي عن أبي سعيد الخدري أنّه قال: إنّ رسول الله ﷺ لما نزلت هذه الآية- "قال الله أكبر على إكمال الدين و إتمام النعمة و رضا الرب برسالتي و ولاية علي بن أبي طالب من بعدي" ، وقال: "من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه و عاد من عاداه و انصر من نصره و اخذل من خذله" [3] ، وعنه أيضًا أنّه قال: إنّ النبي صلى الله عليه و آله يوم دعا الناس إلى غدير خم- أمر بما تحت الشجرة من شوك فقم ، و ذلك يوم الخميس- يوم دعا الناس إلى علي و أخذ بضبعه- ثم رفعها حتى نظر الناس إلى بياض إبطيه- ثم لم يفترقا حتى نزلت هذه الآية: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً ﴾ - فقال رسول الله صلى الله عليه و آله: الله أكبر على إكمال الدين و إتمام النعمة - و رضا الرب برسالتي و الولاية لعلي، ثم قال: اللهم وال من والاه، و عاد من

(١) سورة المنافقون ، الآية : ٤.
(٢) الميزان ، ٥ / ١٧٦.
(٣) مجمع البيان ، ٣ / ٢٠٠.

عاداه، و انصر من نصره، و اخذل من خذله [١] .

الرابع: تمام النعمة

اختلف أهل السنة في بيان المقصود من هذه الكلمة فمنهم من جعل اتمام النعمة بسبب إكمال الدين الإسلامى ، وقال: لا نعمة أتمّ من نعمة الإسلام [٢] ، وبعضهم قال: إنّ الله أتمّ النعمة بإكمال الشرائع والأحكام ، وقال آخر: بدخول المسلمين مكة آمنين مطمئنين [٣]، ويقول الزمخشري في تفسيره: وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي بفتح مكة و دخولها آمنين ظاهرين، و هدم منار الجاهلية و مناسكهم ، وأن لم يحجّ معكم مشرك، و لم يطف بالبيت عريان ، أو أتممت نعمتي عليكم بإكمال أمر الدين والشرائع كأنه قال: اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي بذلك، لأنّه لا نعمة أتمّ من نعمة الإسلام [٤] .

و يُردّ عليهم: أنّ ما ذكروه في إتمام النعمة لا يختلف عمّا جاء عنهم في معنى إكمال الدين، فلا نرى أيّ شيءٍ جديد في تفسيرهم هذه الكلمة بحيث يميّزها عن إكمال الدين، مع أنّ هناك فرقًا شاسعًا بين معنى الإكمال و بين الإتمام [٥] ، فانّ الاتمام يصدق حيث كملت الأجزاء في الأُمور التي لم تكن مرتبطة بل مستقلة كصيام كل يوم من شهر رمضان ، فإنّ ما يجب على المكلّف هو صيام شهر بكامله ، ولكن إذا صام بعض الأيام و ترك البعض الآخر فلا يعاقب على الأيام التى صامها، بل يعاقب بالمقدار الذي تركه، لانّ المطلوب صيام كل يوم على حدة قال تعالى ﴿ أَتِمُّوا الصِّيامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾[٦]، بخلاف الإكمال فإنّه يتحقق بعد تماميّة الأجزاء إذا أُضيف إليها خصوصيات أُخرى فهو مرتبة بعد التمامية[٧]؛ ولهذا نقول أنّ الدين و إن كان تامًّا نسبيّا بالأحكام والآداب والمعارف الأُخرى إلّا أنّه لم يكمل ، و بعدما

(١) كشف الغمة ، ١ / ٣٢٣
(٢) مفاتيح الغيب ، ١١ / ٢٨٨
(٣) الجامع لاحكام القرآن ، ٦ / ٦٢
(٤) الكشّاف ، ١ / ٦٠٥
(٥) التحقيق في كلمات القرآن ، ١ / ٣٩٦
(٦) سورة البقرة ، الآية : ١٨٧
(٧) التحقيق في كلمات القرآن ، ١٠ / ١١٢

عيّن النبي صلى الله عليه وآله الخليفة و الولي من بعده فجعل الله سبحانه الدين كاملًا، فقال (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُم)، وهذا كالمراحل التي تمرّ بها نطفة الإنسان فهى تبدأ من التراب ، ثم العلقة ثم المضغة و...، فهو حينما ينتهي من كل مرحلة من هذه المراحل يكون قد أتمّ تلك المرحلة ، وحينما تنتهى جميع المراحل و يصبح خلقًا آخر -كما عبّر القرآن الكريم- حينئذٍ يقال له كامل وتتم له النعمة بجميع اجزائها ومراحلها[1]، و هكذا الدين فحينما يُشرّع فيه أىّ جزءٍ من أجزائه يكون تمامًا في ذلك الجزء ، وحينما ينزل آخر حكمٍ سماويٍ فيه فحينئذٍ يقال له قد اكتمل ذلك الدين ، وقد تمّت فيه النعمة اي جميع النعم، و حيث إنّ النبى صلى الله عليه وآله كان قد بيّن جميع ما يحتاجه الناس ، ولم يبق إلّا شيء واحد وهو اختيار الخليفة من بعده ، وكان يخشى الناس من عدم قبولهم ذلك فلمّا جاءه الخطاب الإلهى الشديد و الصريح محذّرًا ايّاه ﴿ يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ، وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ، وَ اللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ، إِنَ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِين ﴾ قام بين الناس وأعلن أنّ الخليفة والولي من بعده هو علي عليه السلام ، وبذلك يكون الدين قد كمل و تكون النعمة قد تمّت بجميع اجزائها.

النتيجة

فقد اتّضح لنا من هذه الدراسة عدّة نقاط:

الأُولى: إنّ آية الإكمال جملة معترضة و تختلف من حيث المعنى و السياق عمّا قبلها و ما بعدها.

الثانية:إنّ المقصود من اليوم المذكور في الآية هو يوم الثامن عشر من حجة الوداع السنة العاشرة (يوم غديرخم) حيث نصّب فيه النبي الأكرم صلى الله عليه و آله عليًّا إمامًا و خليفة للمسلمين.

(١) تفسير تسنيم ، ٥ / ٥٩٨

الثالثة: قد يئس الكفار في ذلك اليوم بعد أن عيّن النبي الأكرم صلى الله عليه و آله عليًّا إمامًا وخليفة لحفظ الدين والشريعة الاسلامية.

الرابعة: أنّه قد تحقق إكمال الدين و إتمام النعمة بالولاية و الخلافة التي تعدُّ من القضايا المصيرية في مستقبل الإسلام ، وأمّا ما قيل من أنّ المراد من إكمال الدين هو بيان الأحكام والفرائض ، أو خلوّ بيت الله الحرام من المشركين فهو لا يستقيم أمام النقد

لذا يتبيّن بكل وضوح دلالة الآية على ولاية الإمام علي عليه السلام بعد الرسول إلى درجة تكاد تكون صريحة وقطعية في ذلك.

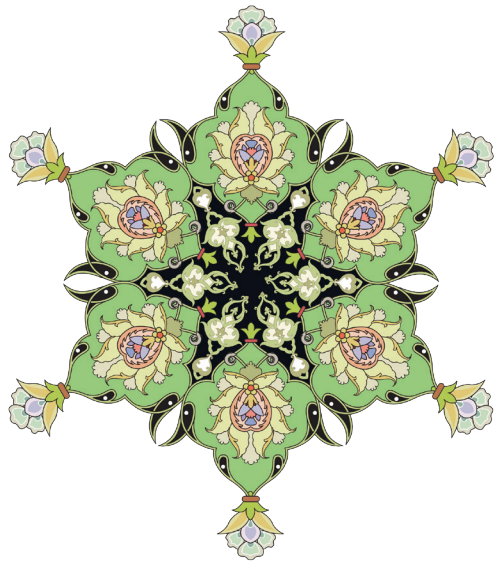

المصادرو المراجع

١. القرآن الكريم.

٢. إثبات الهداة بالنصوص و المعجزات، حر العاملي، محمد بن الحسن، ١٤٢٥ ق، بيروت، الأعلمي.

٣. أُصول الكافي، الكليني، محمد بن يعقوب، ١٤٢٩ق، قم، دار الحديث.

٤. أطيب البيان في تفسير القرآن، الطيب، عبد الحسين، ١٣٧٨ش، تهران، انتشارات اسلام.

٥. أمالي الصدوق، الصدوق، محمد بن علي، ١٣٧٦ ش ، تهران، كتابچي.

٦. الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، مكارم الشيرازي، ناصر، ١٤٢١ق، قم، مدرسة الامام على بن ابى الطالب عليه السلام.

٧. أنوار التنزيل و أسرار التأويل، البيضاوي، عبدالله بن عمر، ١٤١٨ق، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

٨. تاريخ الطبري، الطبري، محمد بن جرير، ١٤٣١ق، بيروت،الاميرة.

٩. تأريخ بغداد، الخطيب البغدادي،أحمد بن على،١٤١٧ق، بيروت، دار الكتب العلمية.

١٠. التحقيق في كلمات القرآن، المصطفوي، حسن، ١٣٦٠ش، تهران، بنگاه ترجمه و نشر كتاب.

١١. التسنيم في تفسير القرآن، جوادي آملى، عبدالله، ١٣٩٠ش، قم، نشر أسراء. "موجود في هامش صفحة١٧".

١٢. تفسير شريف لاهيجي، الشريف اللاهيجي، محمد بن على، ١٣٧٣ش، تهران، نشر داد.

١٣. تفسير نور الثقلين، الحويزي،عبد على بن جمعه، ١٤١٥ق، قم، انتشارات اسماعيليان.

١٤. جامع البيان في تفسير القرآن، الطبري، محمدبن الجرير، ١٤١٢ق، بيروت، دار المعرفة.

١٥. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، محمد بن أحمد، ١٣٦٤ش، تهران، انتشارات ناصر خسرو.

١٦. حقائق التفسير، السلمي، محمد بن حسين، ١٣٦٩ش، تهران، مركز نشر دانشگاهي.

١٧. خصائص أمير المؤمنين على بن أبى طالب، النسائي، أحمد، ١٤١٩ق، قم، دار الثقلين.

١٨. الدر المنثور في تفسير المأثور، السيوطي، جلال الدين، ١٤٠٤ق، قم، كتابخانه آيت الله مرعشي نجفي.

١٩. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، الآلوسي، محمود، ١٤١٥ق، بيروت، دار الكتب العلمية.

٢٠. صحيح البخاري، البخاري، محمد، ١٤١٥ق، بيروت، دار أحياء التراث العربي.

٢١. الغدير في الكتاب و السنة و الأدب، الأميني، عبد الحسين، ١٤١٦ق، قم، مركز الغدير.

٢٢. الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، صادقي الطهراني، محمد، ١٣٦٥ش، قم، انتشارات فرهنگ اسلامي.

٢٣. الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري، محمود، ١٤٠٧ق، بيروت، دار الكتاب العربي.

٢٤. كشف الغمة في معرفة الأئمة، الإربلي، على بن عيسى، ١٣٨١ش، تبريز، بني هاشم.

٢٥. مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي، فضل بن حسن، ١٣٧٢ش، تهران، انتشارات ناصر خسرو.

٢٦. معالم التنزيل في تفسير القرآن، البغوي، حسين بن مسعود، ١٤٢٠ق، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

٢٧. مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، محمدبن عمر، ١٤٢٠ق، بيروت، دار إحياء التراث العربى.

٢٨. الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائي، محمد حسين، ١٤١٧ق، قم، دفتر نشر اسلامي.